العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

جهود أئمة اللغة المتقدمين
في تنقية العقيدة

دكتور عمر مسلّم العكش
جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

ملخّص:

موضوع الدراسة هو «جهود أئمة اللغة المتقدمين في تنقية العقيدة. وقد حاولت الدراسة أن تبرز تلك الجهود اللغوية التي وضعت العرب والمسلمين على أبواب منعطف تاريخي بدؤوا به خطوتهم الأولى في التفكير اللغوي، وكانت نقطة الانطلاق التماس غرائب القرآن الكريم، وإعرابه، وتأويل مشكله، والشروع في التأليف، ووضع الرسائل والكتب والمصنفات في علوم القرآن التي توفرت على دراسة الألفاظ الغريبة، ودراسة المعاني والمسائل الدينية، وقد حفز اشتمال القرآن على المتشابه العلماء على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تمكنهم من فهم الآيات المتشابهات، فجدُّوا في بيان معانيها، وتوضيح مشكلاتها اللغوية والنحوية والصرفية وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وإزالة الغموض

من متشابهها، يحفزهم على ذلك الدفاع عن العقيدة الإسلامية والتصدِّي للطاعنين في القرآن، والاجتهاد في تأكيد أصالة مفرداته الثابتة التي أتى بها الوحي الإلٰهي، بما ينسجم مع روح هذا الكتاب المنزل، والدلالات السليمة للعربية الفصحى، وتأويل مشكل آياته، حتى يستوي في فهمه السامعون، وبيان نواحي إعجازه وتناسق سوره وآياته، وتكامله في وحدته، وهم يهدفون في هذا التبين إلى هدم كل ما أشاعه المغرضون حول الكتاب الكريم، من مزاعم التناقض والغموض، والتفاوت في البيان، وقد تسلحوا باللغة، ليردوا عليهم أقوالهم، ويفندوا مزاعمهم، ويبطلوا حججهم، معتمدين في ذلك على قدراتهم اللغوية ومخزونهم اللغوي ليصححوا ما اعتقدوا أن المغرضين قد أخطؤوا فهمه، محتكمين في تأويل اللفظ القرآني إلى تداوله الحي الثابت في أكثر من مجال قرآني وتراثي عربي.

مدخل:

كان للغويين العرب المتقدمين إسهام مبكر في البحث اللغوي الذي وضع الأسس ومهد السبل لنهضة علم اللغة العام كما عرفته الإنسانية فيما بعد بكل تشعبه ونظرياته.

وكان المنطلق إلى هذا الموضوع دينياً في الأصل، ذلك أن أبحاث اللغويين العرب نشأت تلبية لنزوع عقلي يهدف إلى معالجة قضية غير لغوية في جوهرها، ولكن لم يكن من سبيل إليها إلا باللغة، وأعني بذلك قضية العقيدة ممثلة بالقرآن الكريم، ومن هنا كان اتجاه الأوائل من لغويينا دينياً قبل أن يكون لغوياً. فلقد أقلقهم أن من الصحابة من يقفون حائرين أمام بعض ألفاظ القرآن الكريم بسبب عدم معرفتهم معناها الدقيق، أو تهيبهم من تفسيرها على وجه قد لا يوافق المقصود بها في تعاليم العقيدة، أو القصد الشرعي، ومثل هذا ينبني على احتمال اللغات ويعرف بالتأويل، لا بتحقيق المعنى، وغير خفي أن هذا كله يعني الحاجة الماسَّة إلى المعرفة اللغوية المتنوعة، والتسلح بذخيرة كافية من العلم حتى يصبح المفسّر مؤهلاً للقيام بمهمته الدينية اللغوية، وبالنظر إلى هذه

الاعتبارات ومراعاتها كان الحض على مدارسة القرآن الكريم وفهمه ومعرفة لغة العرب وأساليب كلامهم، وقال أحد العلماء: «يحتاج من تكلّم في تفسير كتاب الله عز وجل إلى عشر خصال، إن أخطأ واحدة منها كان السكوت أولى به. إحداها: أن يكون عالماً بظاهر التنزيل، عارفاً باختلاف القراءات وما يختلف به المعنى وما لا يختلف. والثانية: أن يكون عارفاً بلغة العرب وطريقة النحو والإعراب[1]..» وقال السيوطي: «لا يُقْرئ القرآن إلا عالم باللغة»[2].

ولذلك كان الحرص على فهم القرآن الكريم وتفسير غريبه وتأويل مشكله استكمالاً لفهم العقيدة الإسلامية، وتنقيتها، وخدمة لها، وصوناً للغة القرآن الكريم من فساد الألسنة واللحن الذي بات متوقَّعاً بما له من آثار غير حميدة في توجيه الآيات الكريمة. وقال ابن الأثير في هذا الصدد: «... وجاء التابعون لهم «للصحابة» بإحسان، فسلكوا سبيلهم، ولكنهم قلّوا في الإتقان عدداً، واقتفوا هديهم وإن كانوا مدُّوا في البيان يداً، فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلا وكان اللسان العربي قد استحال أعجميّاً أو كاد، فلا نرى المستقلّ به إلا آحاداً»[3].

وقال ابن فارس: «فمن أراد معرفة كتاب الله ـ جل وعز ـ وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب لم يجد من العلم باللغة بداً»[4] فإن عبارَتَيْ «معرفة كتاب الله» و«العلم باللغة» وما تتضمنانه من دلالة على الإلمام أو الفهم لبعض جوانب اللغة لتكون أدوات ووسائل موصولة إلى «فهم» لغوي وديني.

جهود أئمة اللغة المتقدمين في تنقية العقيدة:

ملك القرآن الكريم على المسلمين الأوائل قلوبهم، وأضحى همهم الأوحد قراءته والاستماع إليه، وكان الصحابة عرباً خُلَّصاً، يتذوقُون الأساليب الرفيعة، ويفهمون ما ينزل على رسول الله ﷺ من الآيات البينات، فلم تكن

(1) مقدمتان في علوم القرآن: 174.

(2) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: 2/ 302.

(3) النهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 4.

(4) الصحابي في فقه اللغة: 64.

الحاجة ماسَّة إلى وضع تآليف في علوم القرآن في عهد رسول الله والصحابة، وظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول الله، ثم على عهد خليفتيه أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وفي خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، وأمر عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن يجتمعوا على مصحف إمام، وأن تنسخ منه مصاحف للأمصار، وأن يحرق الناس كل ما عداها، فوضع بذلك الأساس لعلم رسم القرآن، أو علم الرسم العثماني، كما أمر علي ـ رضي الله عنه ـ أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة (69هـ) بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللغة العربية، فكان علي ـ رضي الله عنه ـ بذلك واضع الأساس لعلم إعراب القرآن الكريم، ثم تتابع التأليف في علوم القرآن، ومنها علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم المكيّ والمدني، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن وتأويل مشكله.

وفي عصر التأليف الأول، كان العلماء يهتمون بالتفسير قبل كلِّ شيء، لأنه أمُّ العلوم القرآنية، ونشأ التفسر بالرأي إلى جانب التفسير بالمأثور، وفُسِّر القرآن كلُّه، وجزء منه وسورة، وأحياناً آية أو آيات خاصة كآيات الأحكام.

واسترعى انتباه علماء التفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

وقد حمل ذكر المحكم والمتشابه العلماء على وضع مؤلفات كثيرة في هذا العلم، لبيان معاني بعض آيات من الكتاب الكريم، وهم متفقون على أن المحكم من الآيات هو الذي يدل على معناه بوضوح لا خفاء فيه، ولذلك لم يبحثوا فيه؛ لأن قراءته كافية لفهم المراد منه، أمَّا المتشابه فهو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه، ويدخل في المتشابه: المجمل والمؤول،

(5) سورة آل عمران، الآية: 7.

والمُشْكِل، لأن المجمل يحتاج إلى تفصيل، والمؤوَّل لا يدلُّ على معنى إلا بعد التأويل، والمُشْكِل خفي الدلالة، فيه لبْس وإبهام.

وقد حفز اشتمال القرآن على المتشابه العلماء على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تمكنهم من فهم الآيات المتشابهات، فجدّوا في بيان معانيها، وتوضيح مشكلاتها اللغوية والنحوية والصرفية، وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وإزالة الغموض من متشابهها، وتأخذ هذه المؤلفات من كل علم بطرف، فهي آخذة من اللغة بطرف، ومن التفسير، وبيان الأحكام بطرف، ولا تستقصي هذه المؤلفات تفسير آيات القرآن آية آية.

وتذكر المصادر عدداً كبيراً من أئمة اللغة الذين وضعوا مؤلفات عديدة في تأويل مشكل القرآن، منهم: واصل بن عطاء «ـ 231هـ»[6]، ويونس بن حبيب «ـ 182هـ»[7] وأبو جعفر محمد بن حس الرؤاسي «ـ 187هـ»[8]، والكسائي «ـ 189هـ»[9]، وأبو فيد مؤرِّج السدوسي «ـ 195هـ»[10]. وأبو محمد اليزيدي «ـ 202هـ»[11]، وقطرب «ـ 206هـ»[12] والفرّاء «ـ 217هـ»[13]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى «ـ 211هـ»[14]، والأخفش «ـ 215هـ»[15]، وأبو عبيد القاسم بن سلام «ـ 224هـ»[16]، وابن قتيبة الدينوري «ـ 276هـ»[17].

---

(6) وفيات الأعيان: 6/ 11.

(7) الفهرست: 55، وذكر أن له كتابين: صغير وكبير.

(8) السابق: 55، ومعجم الأدباء: 18/ 125، وإنباه الرواة: 51.

(9) السابق: 55، ومعجم الأدباء: 13/ 202.

(10) السابق: 55، ووفيات الأعيان: 5/ 304.

(11) السابق: 55، ووفيات الأعيان: 6/ 183.

(12) السابق: 129، وإنباه الرواة: 3/ 220، ومعجم الأدباء: 19/ 53.

(13) طبقات المفسرين: 2/ 326.

(14) بغية الوعاة: 2/ 295.

(15) طبقات المفسرين: 1/ 35.

(16) بغية الوعاة: 2/ 376، وإنباه الرواة: 3/ 110.

(17) مراتب النحويين: 136، والفهرست: 85، وتاريخ بغداد: 10/ 170.

ومن تلك المؤلفات وصلت كتب معاني القرآن للفرّاء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للأخفش، وتأويل مشكل القرآن، وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة.

وأطلق السمَّري راوي كتاب «معاني القرآن للفراء، اسم «تفسير مشكل إعراب القرآن الكريم» على هذا المؤلف. وهدف الفرّاء إزالة اللبس عن الآيات المشكلة التي رأى فيها مشكلة لغوية أو نحوية أو صرفية، وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وأزال الغموض من متشابهها؛ ولذلك تجاوز الآيات المحكمات لوضوحها وعدم الحاجة إلى الوقوف عندها.

ويعكس منهج الكتاب ذهن الفرّاء المنظَّم، فقد راعى ترتيب تسلسل سور القرآن الكريم، فبدأ بسورة الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، وانتهى بسورة الناس، كما راعى تسلسل ترتيب الآيات التي يعالجها في السورة نفسها، فبدأ ـ مثلاً ـ بالآية الأولى التي رأى فيها مشكلة ما، وانتقل إلى الآية التالية، وهكذا حتى يأتي على الآيات المتشابهات آية آية. ولم تتمحَّض معالجته للآيات المتشابهات على الجانب اللغوي، فقد تناولت جوانب مختلفة، وذلك حسب طبيعة المشكلة التي يراها في الآية، فقد عالج رسم القرآن في كلمة «اسم»، وعلَّل حذف الألف في البسملة بالتخفيف[18]، وعالج القراءات القرآنية، فوقف عِند قراءة قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وناقش أوجه قراءتها بالرفع، والفتح، والكسر، والتمس لكل وجه علَّة[19]. وعالج مسائل نحوية، وناقش إعراب (غير) و(لا) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[20].

وناقش تذكير الفعل وتأنيثه في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[21]. وذهب إلى زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[22]،

(18) معاني القرآن: 1/ 302.

(19) السابق: 1/ 303.

(20) سورة الفاتحة، الآية: 7، ومعاني القرآن: 1/ 8.

(21) سورة البقرة، الآية: 212، والسابق: 1/ 125، 131.

(22) سورة الأعراف، الآية: 12. والسابق: 1/ 21 و46 و244 و374.

وعالج مسائل صرفية، وناقش قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[23]. واستشهد على ظاهرة الإبدال بسماعه من بني أسد إبدالهم الفاء من الثاء كثيراً[24]. وعالج القراءات القرآنية، وناقش قراءة الحسن في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[25]. فاحتجَّ بقول امرأة من طيئ سمعها في توجيه الهمز في دريت ودرأت[26].

واعتمد الفرّاء على حسّه اللغوي السليم، وعلى خبرته بأسرار العربية وأساليبها، وقلَّب الآية على وجوهها، وناقش قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[27]، فقال: يصلح فيه (ذلك) من جهتين، وتصلح فيه (هذا) من جهة، فأمّا أحد الوجهين من (ذلك) فعلى معنى: هذه الحروف يا أحمد، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك، والآخر أن يكون (ذلك) على معنى يصلح فيه (هذا)، لأن قوله (هذا) و(ذلك) تصلحان في كل كلام إذا ذكر ثم أتبعته بأحدهما بالإخبار عنه، ألا ترى أنك تقول: «قد قدم فلان»، فيقول السامع: «قد بلغنا ذلك» و«قد بلغنا هذا الخبر». فصلحت فيه «هذا» لأنه قد قرب من جوابه، فصار كالحاضر الذي يشير إليه، وصلحت فيه «ذلك» لانقضائه، والمنقضي كالغائب، ولو كان شيئاً كأنما يُرَى لم يَجُزْ مكان «ذلك» «هذا» ولا مكان «هذا» «ذلك»... وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «هذا فذوقوه»، وفي قراءتنا «ذلكم فذوقوه»[28]. فأمّا ما لا يجوز فيه «هذا» فلو رأيت رجلين تَذْكُرُ أحدَهما لقلت للَّذي تعرف: مَنْ هذا الذي معك؟ ولا يجوز ها هنا: من ذلك؟ لأنك تراه بعينك.

وتحدّث الفرّاء عن مظاهر الإعجاز في القرآن، فذكر الالتفات، والمجاز،

---

(23) سورة البقرة، الآية: 61.

(24) معاني القرآن: 1/ 41.

(25) سورة يونس، الآية: 16.

(26) معاني القرآن: 1/ 459.

(27) سورة البقرة، الآية: 2.

(28) سورة الأنفال، الآية: 14.

والإيجاز، والحذف، والاستفهام، والتعبير عن النفي بالتعجب، وعن الأمر بالجزاء[29]، كما تحدث عن أسباب النزول[30]، وذكر عادات الجاهليين وأخبارهم[31]، واعتمد الفرّاء في معالجته للآيات المتشابهات على آراء العلماء والمفسِّرين والقرّاء، كابن عبَّاس، ومجاهد، وغيرهما[32]، وأخذ عن الأعراب الفصحاء والقبائل الفصيحة كقبيلة أسد[33].

أمّا مصادر شواهده فمتنوّعة، وعلى رأسها شواهد القرآن نفسه، فقد استشهد بالآية على الآية، ومنها الشعر الجاهلي والإسلامي، ومنها القراءات القرآنية.

ويبدو لنا الفرّاء من خلال كتابه عالماً بالقرآن وقراءاته، وبلغة العرب وعلومها، وبالشعر الجاهلي والإسلامي، وبالعلوم الدينية من فقه وتفسير، فجاء الكتاب ليعكس ثقافته الموسوعية، فهو يجمع من كل موضوع بطرف، فقد أخذ من العلوم الآنفة كلها، وصبَّها في خدمة هدفه الأساسي، وهو تأويل الآيات، والتماس حلول لما رآه من مشكلها ومتشابهها. وتبدو في الكتاب المظاهر الأولى لطرائق التأليف اللغوي، فقد اختلطت فيه الدراسات القرآنية بالدراسات اللغوية، ولذلك يحتل الكتاب مكانة في المكتبتين الدينية واللغوية على حدٍّ سواء.

ثم وضع أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «مجاز القرآن»، وقد هدف إلى بيان وشرح ما غمض من معاني آيات القرآن الكريم وألفاظه، بعد أن مسَّت الحاجة إلى وضع كتاب يعين الدّارسين على تدبَّر آيات الذكر الحكيم، بعد أن بَعُدَ العهد بعصر التنزيل، كما قال أبو عبيدة في مجازه: «فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وجهه إلى أن يسألوا النبي ﷺ عن معانيه، لأنهم كانوا عرب

---

(29) معاني القرآن: 1/ 14، 23، 48، 63، 423، 441.

(30) السابق: 1/ 24، 43، 75.

(31) السابق: 1/ 122.

(32) السابق: 1/ 349.

(33) السابق: 1/ 41.

الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب مِثْلَه في الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مِثْلُ ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني»[34].

ويرى أبو عبيدة أن القرآن الكريم نصٌّ عربي أُنزل بلسان عربي مبين، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[35]. وما دام القرآن جارياً على سنن العرب في أحاديثهم ومحاوراتهم، وما دام يحمل كلَّ خصائص الكلام العربي من زيادة وحذف وإضمار، وتقديم وتأخير فلذلك لم يحتج الذين سمعوه من الرسول والصحابة في فهمه إلى السؤال عن معانيه.

وأمّا «المجاز» عند أبي عبيدة فهو بمعنى التفسير والتأويل والتقدير والغريب، فهو يستعمل لتفسير الآيات هذه الكلمات: «مجازه كذا» و«تفسيره كذا» و«معناه كذا» و«غريبه» و«تقديره» و«تأويله»، على أنَّ معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أن كلمة «المجاز» عنده عبارة عن الطريقة التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعمُّ من المعنى الذي حدّده علماء البلاغة لكلمة «المجاز» فيما بعد.

وقدَّم أبو عبيدة لكتابه بمقدِّمة تناول فيها الحديث عن معنى كلمة «القرآن»، ولماذا سمِّي كتاب الله قرآناً، فقال: «القرآن»: اسم كتاب الله خاصَّة ولا يسمَّى به شيء من سائر الكتب غيره، وإنّما سمِّي قرآناً؛ لأنه يجمع السور فيضمنها، وتفسير ذلك في آية من القرآن قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾[36]، مجازه: تأليف بعضه إلى بعض، ثمَّ قال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾[37]، مجازه: فإذا ألَّفنا منه شيئاً، فضممناه إليك فخذ به، واعمل به، وضمَّه إليك.. يشرح معنى «السورة» من القرآن، مهموزة، وغير مهموزة،

(34) مجاز القرآن: 1/ 8.

(35) سورة إبراهيم، الآية: 4.

(36) سورة القيامة، الآية: 18.

(37) سورة القيامة، الآية: 18.

وتحدّث عن جمعها، ثم شرح معنى «الآية» من القرآن، وتحدَّث عن جمعها وتعدّد أسمائها، ثم ذكر أسماء سور القرآن، فقال: «فمن ذلك أنَّ «الحمد لله» تسمّى «أم الكتاب» لأنه يبدأ بها في أول القرآن، وتعاد قراءتها فَيُقْرأ بها في كل ركعة قبل السورة، ولها اسم آخر، فيقال: لها: «فاتحة الكتاب»؛ لأنه يُفْتَح بها في المصاحف، فتكتب قبل القرآن، ويفتتح بقراءتها في كل ركعة قبل قراءة ما يقرأ به من السور في كل ركعة...

كما تحدث أبو عبيدة في المقدِّمة عن الظواهر اللغوية في القرآن، فقال: «ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني.. ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه الجميع ووقع معناه على الاثنين.. ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد... ومجاز المجمل استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدَّم والمؤخرَّ، ومجاز ما يحوَّل من خبره إلى خبر غيره، بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للَّذي من سببه، ويترك هو. وكلُّ هذا جائزٌ قد تكلموا به»[38].

وختم أبو عبيدة مقدِّمة الكتاب بالكلام على (بسم الله) فناقش معناها، ولم يناقش رسمها، كما فعل الفرّاء، فقال: (بسم الله)، فمجاز تفسيره مضمر كأنك قلت: بسم الله قبل كل شيء، وأول كل شيء، ونحو ذلك، قال عبد الله بن رواحة:

بسم الله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

ويقال: بدأت وبديت، وبعضهم يقول: بدينا. «الرحمٰن» مجازه ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه الراحم، وقد يقدِّرون اللفظين من لفظ واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك، فقالوا: ندمان ونديم.

وقد حشد أبو عبيدة في مقدمة الكتاب كثيراً من الشواهد القرآنية التي تؤيد أراءه التي ذهب إليها، وكثيراً من الشواهد الشعرية، ولغات العرب والقراءات.

---

(38) مجاز القرآن: 1/ 1 ـ 19.

والتزم أبو عبيدة بتناول سور القرآن حسب تسلسلها، فبدأ بالفاتحة، وانتهى بسورة الناس، كما التزم بترتيب الآيات حسب ورودها في كل سورة، ولم يستنقص شرح الآيات كلها، بل وقف عند الآيات التي رأى فيها مشكلة ما، فعالجها بحسب نوع المشكلة، والتمس لها تأويلاً لغويّاً أو نحويّاً أو صرفيّاً، أو خرَّج قراءة من القراءات القرآنية، معتمداً على خبرته بأسرار العربية، وفقهه بأساليبها، واستعمالاتها، ووقوفه على خصائص التعبير فيها، ونهج في تأويله الآيات المشكلة منهجاً لغوياً، وفسَّر غريب ألفاظها، وعرض لإعرابها، وشرح أوجه تعبيرها، واستعان على تفسيره الآيات بالشعر العربي الجاهلي والإسلامي، متأثّراً بمنهج ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وصَرَفَتْه عنايته بالجانب اللغوي عن الاشتغال بالقصص القرآني، وتفصيل القول فيه، كما صرفته عن تتبُّع أسباب النزول إلاّ عندما يقتضي فهم النص القرآني التعرَّض لذلك.

وخالف أبو عبيدة أئمة اللغة في علاجهم بعض الاستعمالات اللغوية القرآنية وتأويلهم بعض الآيات، وهذا يدل على تمكنه من اللغة، وأوجه تصريفها، من ذلك معارضته للفرّاء في استعمال «لا» في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[39]، فقال أبو عبيدة إنها من حروف الزوائد لتتميم الكلام...

وكما اعتمد على اللغة وشواهدها في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وتأويل مشكل آياته، فقد استخدم عقله، ورأيه الخاص، وذوقه اللغوي في تفسير القرآن الكريم؛ ولذلك احتل كتابه مكانة كبيرة بين كتب اللغة والتفسير، فهو غنيٌّ بمادَّته وشواهده، وقد كشف عن غزارة علم أبي عبيدة وسعة اطلاعه، وقال ابن خيرة الإشبيلي: «وأول كتاب جُمِعَ في غريب القرآن ومعانيه كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى وهو كتاب «المجاز»[40].

---

(39) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(40) فهرست ابن خيرة الإشبيلي: 134.

ثم جاء بعد الفرَّاء وأبي عبيدة العالم اللغوي الأخفش المتوفى سنة (211هـ)، وألّف كتاب «معاني القرآن». ولا شكَّ أنه أفاد منهما، وتأثر بمنهجيهما، وسلك مسلكهما في ترتيب كتابه، فالتزم بتسلسل سور القرآن الكريم وآياتها، كما سار على مبدأ الانتخاب، فتناول ما أشكل من الآيات دون استقصائها، ووقف عند الآيات التي تحتاج إلى تأويل أو شرح أو تعليق، وتجاوز الآيات المحكمات الواضحات، وتعرَّض لموضوعات متعدِّدة، منها لغوية، ونحوية، وصرفية، ولكنَّ هدفه كان إزالة اللبس عمَّا أشكل من الآيات المتشابهات، من ذلك ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[41]، فقال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ يعني: مبيِّنات للحلال والحرام ولم يُنْسَخْنَ. وهن الثلاث في الأنعام، أولها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[42]. والآيتان بعدها. وقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: هُن الأصل: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾. وهن: «المص» و«الر»، «الحر». اشتبهن على اليهود. فقال الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[43].

واعتمد الأخفش في منهجه اللغوي كلام العرب، وعدَّة أساساً مهماً من أسس الكتاب؛ لأنه الكلام الذي يُقاس به غيره، ويعتمد عليه في معرفة القصد فيما نحا نحوه، واتخذ سمته، وإذا كان القرآن الكريم من كلام العرب، فإنّ معرفة جوانبه لغةً ونحواً وصرفاً وبلاغة، لا تتم إلاّ بالرجوع إلى كلام العرب، وتبيين خصائصه ومناهجه في التأليف والتعبير.

وكان السماع عنصراً من عناصر مادة الكتاب، فكثيراً ما يقول الأخفش: قد سمعت من العرب من ينشد هذا البيت بغير لام:

فيبكِ على المنجاب أضيافُ قفرةٍ سروا وأسارى لم تفكُّ قيودُها

(41) سورة آل عمران، الآية: 7.

(42) سورة الأنعام، الآية: 151.

(43) سورة آل عمران، الآية: 7.

يريد «فليبك»، فحذف اللام[44].

وكان الأخفش يعتمد على سماعه من الأعراب تارة، وعلى سماع غيره تارة أخرى، من ذلك قوله: (تقول: «نذر يَنْذِر على نفسه نذراً» و«نذرت مالي فأنا أنذره» أخبرنا بذلك يونس عن العرب)[45].

وأفاد الأخفش من لغات العرب في بيان وجوه القراءات القرآنية، وشرح ما يجدُّ من الموافق في دراسته معاني القرآن الكريم، فذكر لغة أزد الشراة، لكثرة إسكان هاء الإضمار فيها[46]، وذكر لغة أسد في تأنيثها «الهدى»[47]، وذكر لغة تميم في نطقها الفعل «يستحي» بياء واحدة[48]، وفي كسرهها هاء الضمير في «فيه» و«منه» و«عنه»، سواء أورد حرف مكسور، أو ياء ساكنة قبلها أم لم يرد»[49].

كما أفاد من لغات العرب في تذكير وتأنيث «الإنجيل» فذكر قول بعضهم: «هي الإنجيل». وقوله بعضهم: «هو الإنجيل»[50]، ولكنه لم ينص على ذكر القبائل التي تؤنث أو تذكر هذا الاسم.

واعتمد لغات العرب حين ذكر أبواب الفعل المجرد، فقال: بَطَشَ يبطُش يبطِش، وحَشَر يحشُر يحشِر، وحَلَّ يحُلّ يحِلُّ. وذكر أفعالاً تجيء على «فعلت» و«أفعلت» وهي بمعنى واحد، من ذلك: بدأ: بدأ الخلق وأبدأ. حزن: حزنته وأحزنته. حلَّ: حللنا وأحللنا[51]. وناقش أحكام الهمزة معتمداً لغات العرب، فقال: إنَّ من العرب من يقلبها إلى صوت آخر قريب منها، فيبدلها هاء، فيقول

---

(44) معاني القرآن: 1/ 23.
(45) معاني القرآن: 1/ 23.
(46) السابق: 1/ 30.
(47) السابق: 1/ 30.
(48) السابق: 1/ 30.
(49) السابق: 1/ 30.
(50) السابق: 1/ 36.
(51) السابق: 1/ 37.

في «إياك» «هيَّاك»، وعلى ذلك جاءت قراءة من قرأ: (هيَّاك نعبد)، وهناك من العرب من يقلبها ياءً في «إسرائيل» و«جبرائيل»، فيقول: «اسرايِيل» و«جبراييل» وفي: «توضأت» «توضيت»[52].

وعالج الأخفش مسائلَ صرفية معتمداً لغات العرب، من ذلك، كسر الفاء في جمع «فُعْلَة» فيقال: «فِعَل» وضمها في جمع «فِعْلَة» فيقال: «فُعَل» فمن الأول: حُبْوَة وحِبًى، ورُشْوة ورِشًا، وصُورَة وصِوَر. ومن الثاني: رِشْوَة ورُشاً[53]. كما عالج مسائل نحوية معتمداً لغات العرب، ممعناً النظر فيها، يفضِّل بعضها على بعض، ويقيسها بقياسات مختلفة، ويقوِّم كُلاًّ بما يراه، فينعت بعضها بالجودة، كقوله: «من العرب من يقول: «يا أُمُّ لا تفعلي» رخَّم، كما قال: «يا صاح» ومنهم من يقول: «يا أمي» و«يا أبي» على لغة الذين قالوا: «يا غلامي»، ومنهم من يقول: «يا أب» و«يا أم» وهي الجيدة في القياس[54]. وفضَّل لغة أهل الحجاز في قراءة (يستحيي) بياءين، على لغة بني تميم الذين يقولون (يستحي) بياء واحدة. وقال: والأولى هي الأصل. وعلَّل اختلاف وجوه النطق في ألفاظ القرآن الكريم، فأباح الرفع والنصب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا﴾[55]، وأباح الرفع والنصب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا﴾[56]. وعلَّل كثيراً من القراءات القرآنية معتمداً على ما ورد من لغات العرب، فمن ذلك «كسر الواو في قراءة ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[57]. وحذف الياءات من رؤوس الآي في الوقف وإثباتها في الوصل في نحو ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾[58]، و﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾[59]. وحذفها في الوقف والوصل في لغة أخرى

---

(52) السابق: 1/ 40، 41.

(53) السابق: 1/ 1، 43.

(54) معاني القرآن: 1/ 50.

(55) سورة آل عمران، الآية: 80.

(56) سورة آل عمران، الآية: 147، وانظر معاني القرآن: 1/ 66.

(57) سورة البقرة، الآية: 16. والسابق: 1/ 21.

(58) سورة ص، الآية: 8، والسابق: 1/ 21.

(59) سورة البقرة، الآية: 41.

خلافاً للكتاب. وعلَّل حذف الياء في المنادي المضاف نحو «يا أمَّ» و«يا أب» في لغة، وإثباتها في لغة أخرى[60].

وانصرفت عناية الأخفش إلى الأصوات اللغوية، فوصف مخارجها وبيّن صفاتها تقارباً وتباعداً، وجهراً وهمساً، وإطباقاً وانفتاحاً، وكان يعرض لتقارب المخارج الصوتية من غير وصف أو تعليق تارة، كقوله: وقال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾[61]. فأدغم التاء في الطاء لأنها في مخرجها[62]. وتارةً يصف مخارج الأصوات، ويعيِّن مواضعها في الجهاز الصوتي، كقوله: «التاء تدغم أحياناً في الدال؛ لأن مخرجها قريب من مخرجها، فلما أدغمت فيها حولت فجعلت دالاً مثلها، فأدغمت التاء في الدال، لأن التاء قريبة المخرج من الدال، مخرج الدال بطرف اللسان وأطراف الثنيتين، ومخرج التاء بطرف اللسان وأصول الثنيتين، فكل ما قرب مخرجه فافعل به هذا»[63]. وكان تارة يصف مخارج الأصوات، ويطلق على الأصوات نعوتها العلمية المختلفة كقوله: «قال تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[64]، وإنَّما هي (افتعل) من ذكرت، فأصلها «اذتكر»، ولكن اجتمعا في كلمة واحدة، ومخرجهاها متقاربان، وأرادوا أن يدغموا، والأول حرف مجهور، وإنَّما يدخل الأول في الآخر، والآخر مهموس، فكرهوا أن يذهب منه الجهر، فجعلوا في موضع التاء حرفاً من موضعها مجهوراً، وهو الدَّال؛ لأنَّ الحرف الذي قبلها مجهور، ولم يجعلوا الطاء؛ لأنَّ الطاء مع الجهر مطبقة، وقال بعضهم (مذَّكر) فأبدل التاء ذالاً، ثمَّ أدخل الذال فيها»[65].

فالأخفش تناول موضوعات متنوعة، وجمع في كتابه من كل موضوع طرفاً، ونال اهتمام الدارسين، واعتمد عليه علماء اللغة والتفسير، واحتلّ مكانة مرموقة في الدراسات القرآنية واللغوية.

---

(60) معاني القرآن: 1/ 22.

(61) سورة النمل، الآية: 47.

(62) معاني القرآن: 1/ 29.

(63) السابق: 1/ 19.

(64) سورة يوسف، الآية: 45.

(65) معاني القرآن: 1/ 19.

ثم وضع الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (ـ 276هـ) كتابه «تأويل مشكل القرآن»، وهدف إلى الرد على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو، فقال: «فأحببت أن أنفح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة والبراهين البيّنة، وأكشف للنّاس ما يلبسون، فألّفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن»[66].

وقد عرض لما صنع مرّة أخرى، بعد أن شرح معنى المتشابه والمشكل، فقال: «وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان... وفيه يقال: اشتبه عليَّ الأمر، إذ أشبه غيره، فلم تكد تفرّق بينهما، وشبَّهت عليَّ: إذ لبَّست الحقَّ بالباطل، ثم يقال لكل ما غمض ودق: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ومثل المتشابه: المشكل، وسمِّي مُشْكِلاً لأنه أشكل، أي دخل في شِكْل غيره، فأشبهه وشاكله، ثم يقال لما غمض، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة: مُشْكِل. وقد بيّنت ما غمض من معناه، لالتباسه بغيره، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذي ادعي على القرآن فساد النظر فيه»[67].

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين، فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها، ثم عقد أبواباً للرّد عليهم في وجوه القراءات، وقال: «وأمَّا ما اعتلُّوا به في وجوه القراءات من الاختلاف، فإنَّا نحتج عليهم فيه بقول النبي ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف، كلُّها شافٍ كافٍ، فاقرؤوا كيف شئتم**»، وإنما تأويل قوله ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف**» على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن، يدلك على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**فاقرؤوا كيف شئتم**»[68].

كما ردّ على الطاعنين ما ادَّعوه على القرآن من اللحن، وما نحلوه من التناقض والاختلاف بين آيِهِ، وما قالوه في المتشابه، كما أجاب عن قولهم: ماذا

---

(66) تأويل مشكل القرآن: 23.

(67) السابق: 101 و102.

(68) تأويل مشكل القرآن: 33 و34.

أراد الله بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان؟ . .

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز لأن أكثر غلط المتأوِّلين كان من جهته، وبسببه تشعبت الطرق، واختلفت النِّحل. وبدأ بباب الاستعارة، ثم باب المقلوب، وباب الحذف والاختصار وباب تكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه. ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب، وهو باب تأويل الحروف التي ادِّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم، فتحدث عن الحروف المقطَّعة، واختلاف المفسِّرين فيها، ثمَّ خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن، فذكر ما في السورة منه ثم أَوَّله، ولكنه لم يرتّب السور على حسب ترتيبها المعروف في المصحف، بل ذكرها حسبما عَنَّ له من مشاكلها، وقد لا يستوفي الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها، فيعيد ذكرها مرَّة أو مرَّات، مثلما فعل في سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة النساء.

والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها، وشرحها كلَّها ـ من بين السور التي ذكرها ـ هي سورة «الجن»، لما فيها من إشكال وغموض، بما وقع فيها من تكرار «إنَّ» واختلاف الفرّاء في نصبها وكسرها، واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن. وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد باباً عظيم القدر بالغ الأهميّة، وهو «باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة» تحدَّث فيه عن نيِّف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة المباني، مختلفة المعاني، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب. . .

ثم ذكر بعد ذلك «باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرَّف «كأين، وأنّى، ولولا، ولوما، ولا جَرمَ، وتعالى، وهلمَّ، ورويداً، وكذْن. . .

ثم ختم ابن قتيبة كتابه بباب «دخول بعض حروف الصفات مكان بعض».

ونجد ابن قتيبة كثيراً ما يشرح الآية التي يرى أنّها مُشْكلة شرحاً مطوَّلاً، يزيل كلَّ لَبْسٍ أو غموض يكتنف معناها. من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[69]. تأويله أنَّ المشركين قالوا: إنَّ محمداً مجنون وساحر، وأشباه هذا من خَرَصهم، فقال الله جلَّ وعزَّ لنبيِّه ﷺ: قل لهم: «اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تنصحوا لأنفسكم، ولا يميل بكم هوى عن حق، فتقوموا لله وفي ذاته، مقاماً يخلو فيه الرَّجل منكم بصاحبه فيقول له: هَلُمَّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جِنَّةً قطُّ أو جرَّبنا عليه كذباً؟ فهذا موضعُ قيامهم مثنى. ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى، فإنَّ في ذلك ما دلَّهم على أنَّه نذير. وكلُّ من تحيَّر في أمر قد اشتبه عليه، واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه، أن يسأل ويناظر، ثم يفكِّر ويعتبر»[70].

ونجده أحياناً يشرح الآية شرحاً موجزاً ويختار اللفظة التي يعتقد أنها سبب اللبس، فيفسرها بما يتفق مع سياق المعنى الذي توحي به الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[71]. يريد: أنهم كانوا لا ينسبونك إلى الكذب ولا يعرفونك به، فلمَّا جئتهم بآيات الله، جحدوها، وهم يعلمون أنك صادق. والجحد يكون ممَّن علم الشيء فأنكره، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[72].

ونجده يذكر في شرح الآية وتأويل مشكلها قولين أو أكثر، ويرتضي جميع الآراء التي تحتملها الآية، ولا يقطع برأي خاص به، ولكنه يختار أولى الأقاويل

---

(69) سورة سبأ، الآية: 46، وينظر تأويل مشكل القرآن: 311.

(70) تأويل مشكل القرآن: 311 و312.

(71) سورة الأنعام، الآية: 33.

(72) سورة النحل، الآية: 14.

في اللغة، من ذلك ما ذكره في تأويل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾[73]. قد تكلّم المفسّرون في هذه الآية بما فيه مقنعٌ وغناء عن أن يوضَّح بغير لفظهم.. وبعد أن ذكر تفاسيرهم وعلّق عليها مقارناً وموازناً ومرجحاً قال: «وهذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلها، ولا نعلم ما أراد الله عزَّ وجل، غير أنَّ أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله ـ صلوات الله عليهم ـ ما قالت أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها»[74].

وقد يرجح أحد المعنيين، بما يراه ملائماً لتأويل مشكل الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾[75]. هذا مَثَلٌ ضربه الله لنفسه ولمن عُبِد دونه، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾. فهذا: «مثل مَنْ جُعِل إلٰهاً دونه أو معه» لأنه عاجزٌ، مُدَبَّرٌ، مملوك لا يقدر على نفع أو ضرٍّ. ثم قال: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ فهذا «مثله جلَّ وعزَّ»، لأنه الواسع الجواد القادر الرازق عباده جهراً من حيث يعلمون، وسراً من حيث لا يعلمون. وقد قال بعض المفسِّرين: هو «مثلٌ للمؤمن والكافر»، فالعبد هو الكافر، والمرزوق هو المؤمن. والتفسير الأول أعجب إليَّ»[76]. ويخطِّىء بعض أقوال المفسّرين ويردُّها، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[77].

لما قال المشركون: لله ولد، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله، عليه السلام، من التبرُّؤ من ذلك، قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام: (قل) لهم ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ أي: عندكم في ادِّعائكم. ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾

---

(73) سورة يوسف، الآية: 110.

(74) تأويل مشكل القرآن: 410 ـ 412.

(75) سورة النحل، الآية: 75.

(76) تأويل مشكل القرآن: 384 و385.

(77) سورة الزخرف، الآية: 81.

أي: أول الموحدِّين، ومن وحَّد الله فقد عبده، ومن جعل له ولداً أو نِدًّا فليس من العابدين، وإن اجتهد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[78]، أي إلاَّ ليوحِّدون. قال «مجاهد»: يريد إن كان للَّه ولد في قولكم، فأنا أول من عبد الله ووحدَّه، وكذَّبكم بما تقولون. و«بعض المفسرين» يجعل «إنْ» بمعنى «ما» وليس يعجبني ذلك[79]. ومن ذلك معارضته تأويل بعض المفسِّرين الذين يلتمسون لألفاظ كتاب الله ـ جلَّ ذكره ـ المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة كتأولهم في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[80]، أي: بشم من أكل الشجرة. وذهبوا إلى قول العرب: غوى الفصيل إذا أكثر من اللبن حتى يَبْشَم، وذلك غَوَى ـ بفتح الواو ـ يغوي غَيًّا. وهو من البشم غِوي ـ بسكر الواو ـ يَغْوَى غَوًى... ونحن نقول: «عصى وغوى» كما قال الله تعالى، ولا تقول: آدم «عاص ولا غاو» لأنَّ ذلك لم يكن من اعتقاد متقدِّم ولا نيَّة صحيحة، كما تقول لرجل قطع ثوباً وخاطه قد قطعه وخاطه، ولا تقل: «خائط ولا خيَّاط» حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به»[81]. فابن قتيبة يأخذ بظاهر النص أحياناً، ولا يخرج عن سنن العرب، ولا يحمِّل اللفظة ما لا تحمل من التأويل، بل يفسّر في حدود النص تفسيراً لغوياً محدوداً على قدر ما تسمح به معاني الألفاظ الظاهرة، ولا يحاول أن يبعد في التأويل، ويذكر أقوال المفسرين التي تتسق مع تأويله، ويرتضيها ولا يعترض عليها، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[82]. قال: «امتداد الظل ما بين طلوع الشمس، كذلك قال المفسرون ويدلك عليه أيضاً قوله في وصف الجنَّة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[83]. أي لا شمس فيه، كأنه ما بين هذين الوقتين»[84].

---

(78) سورة الذاريات، الآية: 56.

(79) تأويل مشكل القرآن: 373.

(80) سورة طه، الآية: 121.

(81) تأويل مشكل القرآن: 402، 403.

(82) سورة الفرقان، الآية: 45.

(83) سورة الواقعة، الآية: 30.

(84) تأويل مشكل القرآن: 314.

وقد يكتفي بإعطاء فكرة عامة عن الآية كلها، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[85]. تأويله أن إبليس لمَّا سأل الله تبارك وتعالى النظرة فأنظره، قال: ولأُغوينهم ولأُضِلنَّهم ولأُمنيَّنّهم ولآمُرنَّهم فليُبتِّكُنَّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهُمْ فليُغيِّرُونَّ خلق الله ولأتخذنّ منهم نصيباً مفروضاً»[86].

وقد يجمع بين إعطاء فكرة عامة عن الآية وشرح الألفاظ الغريبة فيها، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[87]، فالصَّيِّب: المطر. والظلمات: ظلمة الليل، وظلمة السحابة، والرعد: دليل على شدة ظلمة الصَّيِّب وهوله أراد: أو مثل قوم في ظلمات ليل ومطر. فضرب الظلمات لكفرهم مثلاً، والبرق لتوحيدهم مثلاً»[88]. ونرى ابن قتيبة يشير إلى سبب تسمية المسمَّى عندما يشرح بعض الآيات المشكلة من ذلك قوله: «وإنما سميت الإبل: صُفْراً؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة كما قيل لبيض الظباء: أُدْمٌ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرَة»[89]. ومثله السائق ههنا: «قرينها من الشياطين، سمِّي سائقاً لأنه يتبعها، وإن لم يحثها ويدفعها وكان رسول الله ﷺ يسوق أصحابه أي يكون وراءهم»[90]. ومثله أيضاً: «ومعاد الرجل: بلده؛ لأنه يتصرف في البلاد.. ثم يعود إلى بلده»[91].

كما يشير إلى بيان أصل الألفاظ في الآية التي يؤوِّل مشكلها، من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[92]، فإنما يريد الكفَّار ههنا: الزرَّاع، وأحدهم كافر، وإنّما سمِّي كافراً؛ لأنه إذا ألقى البذر في الأرض

---

(85) سورة سبأ، الآية: 20.

(86) تأويل مشكل القرآن: 311.

(87) سورة البقرة، الآية: 19.

(88) تأويل مشكل القرآن: 362.

(89) السابق: 321.

(90) السابق: 422.

(91) السابق: 425.

(92) سورة الحديد، الآية: 20.

كفره، أي غطّاه، وكلُّ شيء غطيته فقد كفرته، ومنه قيل: تكفَّر فلان في السلاح، إذا تغطَّى، ومنه قيل اللَّيل كافر؛ لأنه يستر بظلمته كلَّ شيء. ومنه قول الشاعر لبيد:

يَعْلو طريقةَ مَتْنِها مُتواتراً   في ليلة كفر النجومَ غمامُها[93]

أي غطَّاها، وهذا مثلَ قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[94].

ونرى ابن قتيبة مع أخذه في كثير من الآيات بظاهر المعنى، ونفوره من التأويل البعيد، ومن فرض الاحتمالات الأسلوبية، انطلاقاً من عقيدته ومناصرته لآراء أهل السُّنة، نجده أحياناً يخرج عن تقليده، ويعارض بعض المفسرين والظاهريين من اللغويين في تحكيمهم اللفظي، ويرى أن المجاز يعد القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، ويقول في ذلك: «وأمّا الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أنَّه كذب، لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تُسْأَل. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلِّها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم. ولو كان المجاز كذباً، وكلُّ فعلٍ ينسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً، لأنا نقول: نبت البقلُ، وطالت الشجرةُ، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر»[95]. ويرى أن القرآن نزل بلغة العرب، وأن اللغة العربية فاقت جميع لغات العالم بسحر البيان واتساع المجاز والتفنن في الآساليب، والمجاز ليس كذباً لوجود القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وليس عجزاً عن التعبير بالحقيقة؛ لأنها أصلٌ للمجاز، وهو متفرِّع عنها، وكلاهما يكوِّنان الأسلوب العربي البليغ الذي نزل به القرآن متحدّياً به أرباب البيان وفصحاء العرب، ويقول في ذلك: «وإنّما يَعْرِفُ «فضل القرآن» من كثر نظرهُ، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب، وافتنانها في الآساليب، وما خصَّ به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة ـ قوَّة الكلام وتنقيحه والرأي

(93) البيت من معلّقة لبيد، شرح القصائد العشر للتبريزي: 147.

(94) سورة الفتح، الآية: 29.

(95) تأويل مشكل القرآن: 132.

الجيد ـ والبيان، واتساع المجاز ما أوتيته العرب»[96]. ويؤكد أن القرآن نزل بأساليب العرب، وافتنانها في التعبير، ويقول: «للعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن»[97]. ويقرر ابن قتيبة بأن جهل الناس بأساليب العرب وافتنانها في طرق القول، وتنويعها في مذاهب الكلام هو الذي جرَّهم إلى الاختلاف في الفهم، والغلط في التأويل، لعدم التمييز بين الحقيقة والمجاز، وقال: «وأمّا المجاز فمن جهته غلط كثيرٌ من الناس في التأويل، وتشعبت بهم الطرق، واختلفت النحل»[98] واستخرج أنواع المجاز في القرآن الكريم وبوَّبها، وبدأ بباب الاستعارة وقال: «ونبدأ بباب الاستعارة؛ لأن أكثر المجاز يقع فيه»[99]، ومثَّل لها وقال: «ومن الاستعارة: «اللسان يوضع موضع القول: لأن القول يكون بها، قال الله عزَّ وجلَّ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[100] أي ذكراً حسناً. قال الشاعر:

إنـي أتـتـنـي لـسـانٌ لا أُسَـرُّ بـهـا من عَلْوَ لا عجَبٌ منها ولا سَخَرُ[101]

أي أتاني خبر لا أُسَرُّ به، وهو موت المنتشر بن وهب الباهلي»[102]. وواضح أن هذا مجاز مرسل علاقته الآلية. وقال: ومن الاستعارة قوله تعالى:

---

(96) السابق: 12.

(97) تأويل مشكل القرآن: 20 و21.

(98) السابق: 103.

(99) السابق: 134.

(100) سورة الشعراء، الآية: 84.

(101) البيت لأعشى باهلة من قصيدة يرثي بها المنتشر بن وهب الباهلي، والبيت في الكامل 2/ 392.

(102) تأويل مشكل القرآن: 146 و147.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[103]، يعني الجنة سمَّاها رحمة؛ لأن دخولهم إياها كان برحمته، وقد توضع الرحمة موضع المطر؛ لأنه ينزل برحمته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[104]، يعني مفاتيح رزقه، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[105]، أي من رزق، فقد أطلق الرحمة على الرزق، وهذا مجاز مرسل علاقته السببية، وقد أورد ابن قتيبة أمثلة كثيرة للمجاز المرسل، وعدَّها من الاستعارة؛ لأن تعريفه المتقدِّم شاملٌ لها وللمجاز المرسل، كما أنَّه لم يفطن للفرق بين الكناية والاستعارة، وشرح كثيراً من الآيات، وأوَّل الكناية على أنَّها من باب الاستعارة، من ذلك قوله: «فمن الاستعارة في كتاب الله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[106]، أي عن شدَّة من الأمر، كذلك قال قتادة، وقال: إبراهيم: عن أمر عظيم، وأصل هذا: أنَّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجدِّ فيه، شمّر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشِّدَّة»[107]. ويقول الدكتور كامل الخولي: «والحق أن الأسلوب كناية عن شدَّة الأمر، لأنه يلزم من كشف الساق الوقوع في أمر عظيم يحتاج إلى التعب والجد، وليست هناك مشابهة بين الساق والشدّة حتى يستعار الساق للشِّدَّة»[108].

ومن أبواب المجاز التي أوردها ابن قتيبة باب المقلوب، وذكر ما أتى منه في كتاب الله للاستهزاء، ومن ذلك قول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[109]! ومن ذلك أن يسمَّى المتضادان باسم واحد، والأصل واحد. فيقال للصبح: صريم، ولليل: صريم. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾[110]،

(103) سورة آل عمران، الآية: 107.
(104) سورة الأعراف، الآية: 56.
(105) سورة فاطر، الآية: 2.
(106) سورة القلم، الآية: 42.
(107) تأويل مشكل القرآن: 137.
(108) صور من تطور البيان العربي: 142.
(109) سورة هود، الآية: 87.
(110) سورة القلم، الآية: 20.

أي سوداء كالليل، لأنّ الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل[111].

ومن المقلوب أن يقدَّم ما يوضحه التأخير، ويؤخِّر ما يوضحه التقديم، كقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[112]، أي مخلف رُسُلِه وعْدَه، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد، كما يقع بالرسل، فيقول: أخلفت الوعد، وأخلفت الرسل[113]. وعقد ابن قتيبة باباً للإيجاز بالحذف وعدّ ما جاء منه في كتاب الله من المجاز، والإيجاز عنده نوعان: إيجاز بالقصر ولم يسمه بهذا الاسم، وإيجاز بالحذف والاختصار، وقد أفاض في حديثه عن هذا النوع، وذكر له صوراً متعددة، وشواهد كثيرة توضح الفكرة، وترسم الصورة للإيجاز بالحذف، من ذلك حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وجعل الفعل له، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾[114]، أي سل أهلها فالقرية لا تُسْأَل بل يُسْأَل أهلها. وكقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[115]، أي حُبَّه[116].

ومن الحذف أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما، ويضمر للآخر فعله، كقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[117] ثم يقول: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ﴾[118]، والمعنى يؤتون بفاكهة ولحم طير، لأن الفاكهة ولحم الطير لا يطاف بها فحذف المسند، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾[119]، أي وادعوا شركاءكم لأن الشركاء لا يُجْمَعُون»[120].

---

(111) تأويل مشكل القرآن: 186 و187.

(112) سورة إبراهيم، الآية: 47.

(113) تأويل مشكل القرآن: 193.

(114) سورة يوسف، الآية: 82.

(115) سورة البقرة، الآية: 93.

(116) تأويل مشكل القرآن: 210.

(117) سورة الواقعة، الآيتان: 17 ـ 18.

(118) سورة الواقعة، الآيات: 20 ـ 22.

(119) سورة يونس، الآية: 71.

(120) تأويل مشكل القرآن: 213.

ومن ذلك حذف جواب الشرط، لعلم المخاطب به طلباً للاختصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[121] أراد لكان هذا القرآن.

ومن الاختصار القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل عليه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿1﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿2﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿3﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿4﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ثم قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾[122]. فلم يذكر الجواب للقسم لعلم السامع به. إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه، كأنه قال: والنازعات وكذا وكذا لتبعثُنَّ، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾[123] نُبْعَث[124]؟.

ومن الاختصار الإضمار لغير مذكور، وتنص القاعدة النحوية على أن الضمير لا بُدَّ له من مرجع يعود إليه، وقد يعود الضمير على غير مذكور سابق في الأسلوب، إذا كان هناك دليل يدلُّ عليه، وقرينة ترشد إليه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[125] يعني الشمس، ولم يذكر قبل ذلك، والسياق يدل على ذلك[126].

ومن الاختصار حذف حروف الجر، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[127] أي: كالوالهم أو وزنوا لهم.

أمّا إيجاز القصد فمَثَّل له ابن قتيبة بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[128]. كيف جمع له بهذا الكلام كلَّ خلق عظيم، لأن في

---

(121) سورة الرعد، الآية: 31.

(122) سورة النازعات، الآيات: 1 ـ 6.

(123) سورة النازعات، الآية: 11.

(124) تأويل مشكل القرآن: 224.

(125) سورة ص، الآية: 32.

(126) تأويل مشكل القرآن: 226.

(127) سورة المطففين، الآية: 3.

(128) سورة الأعراف، الآية: 199.

«أخذ العفو»: صلة القاطعين والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين. وفي «الأمر بالعُرْف»: تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطرف عن المحرمَّات. وفي «الإعراض عن الجاهلين»: الصبر والحلم، وتنزيه النفس عن مجاراة السفيه، ومنازعة اللجوج»[129].

وبيَّن السرَّ البلاغي في زيادة بعض الحروف، كزيادة، لا، والباء، واللام، وعلى، وعن، ومن ذلك قوله: «وقد تزاد (لا) في الكلام، والمعنى: طرحها لإباءٍ في الكلام، أو جَحْدٍ، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[130]، أي ما منعك أن تسجد، فزاد في الكلام (لا) لأنه لم يسجد. ومنه قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾[131] يريد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً من ذلك، ولذلك زاد (لا) في أول الكلام لأنَّ في آخره جَحْداً.

وتزاد (لا) للرَّد على المكذبين، كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[132]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾[133]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾[134]، فإنها زيدت في الكلام علي نيَّة الرَّدِّ على المكذبين، كما تقول في الكلام: (لا والله ما ذاك كما تقول، ولو قلت، والله ما ذاك كما تقول لكان جائزاً، غير أن إدخالك (لا) في الكلام أبلغ في الرد[135].

ومن أبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة باب «مخالفة ظاهر اللفظ معناه»، تكلم فيه عن الأساليب الإنشائية، وخروجها عن أصلها إلى الاستعمالات المجازيَّة، من ذلك الدُّعاء على جهة الذَّم لا يراد به الوقوع،

---

(129) تأويل مشكل القرآن: 4 ـ 5.

(130) سورة الأعراف، الآية: 12.

(131) سورة الحديد، الآية: 29.

(132) سورة القيامة، الآية: 1.

(133) سورة الانشقاق، الآية: 16.

(134) سورة البلد، الآية: 1.

(135) تأويل مشكل القرآن: 244 ـ 247.

كقوله عزَّ وجلّ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[136]، وردّ ابن فارس على ابن قتيبة فقال: «ولا يجوز لأحد أن يطلق فيما ذكره الله أنَّه دعاء لا يراد به الوقوع، وما كان الله ليدعو على أحد فتحيد الدعوة عنه»[137]. لأنَّ القتل هنا جاء بمعنى اللعن والطرد من الرحمة.

ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر ويخرج إلى غرض التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[138] وإلى غرض التأديب، كقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[139]. وإلى غرض الإباحة، كقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[140]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[141].

ويقول ابن قتيبة: ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[142].

- ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[143]، كأنه قال: عمَّ يتساءلون يا محمد؟ ثم قال: (عن النبأ العظيم يتساءلون)، ومعنى هذا الاستفهام تضخيم الشأن كما يقول الزمخشري[144].
- ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو توبيخ، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[145].

---

(136) سورة الذاريات، الآية: 10.

(137) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: 169.

(138) سورة فصلت، الآية: 40.

(139) سورة النساء، الآية: 34.

(140) سورة النور، الآية: 33.

(141) سورة الجمعة، الآية: 10.

(142) سورة الأنبياء، الآية: 42.

(143) سورة النبأ، الآيتان: 1 ـ 2.

(144) الكشاف: 2/ 446.

(145) سورة الشعراء، الآية: 165.

- ومنه عام يراد به خاص كقوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[146]، ولم يرد كل الشعراء[147].

- ومنه جمع يراد به واحد واثنان، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[148]. واحد واثنان فما فوق[149].

- ومنه واحد يراد به جميع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[150].

- ومنه أن تصف الجميع صفة الواحد، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾[151].

- ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[152]، روي في التفسير: أنَّ الناسي كان «يوشع بن نون» ويدلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾[153].

- ومنه أن يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما، أو تنسبه إلى أحدهما وهو لهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[154].

- ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾[155].

- ومنه أن يخاطب الرَّجل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره، كقوله سبحانه:

---

(146) سورة الشعراء، الآية: 224.
(147) تأويل مشكل القرآن: 281.
(148) سورة النور، الآية: 2.
(149) تأويل مشكل القرآن: 282.
(150) سورة الحجر، الآية: 68.
(151) سورة المائدة، الآية: 6.
(152) سورة الكهف، الآية: 61.
(153) سورة الكهف، الآية: 63.
(154) سورة التوبة، الآية: 62.
(155) سورة يونس، الآية: 22.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ثم قال للكفار: ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[156].

- ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمْرَك الاثنين، فتقول: افعلا، قال الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[157]. الخطاب لخزنة جهنَّم أو زبانيتها.

- ومنه أن يخاطب الواحد بلفظ الجميع، كقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾[158].

- ومنه أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد، وهو قولان، نحو قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، انقطع الكلام، ثم قالت الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[159].

- ومنه أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[160]. يريد يوم القيامة، أي سيأتي قريباً فلا تستعجلوه.

- ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[161]، أي لا معصوم من أمره.

- ومنه أن يأتي «فعيل» بمعنى «مُفْعِل»، نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[162]. أي مبدعها.

---

(156) سورة هود، الآية: 14.

(157) سورة ق، الآية: 24.

(158) سورة المؤمنون، الآية: 99.

(159) سورة يس، الآية: 52.

(160) سورة النحل، الآية: 1.

(161) سورة هود، الآية: 43.

(162) سورة البقرة، الآية: 117.

ـ ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[163]، أي آتياً[164].

وتناول ابن قتيبة عدداً من الآيات القرآنية التي اشتملت على التشبيه، بالتفسير والإيضاح وبيان مراميها، ومغازيها وأهدافها، ومدى أثرها في النفوس البشرية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿64﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[165]. طلعها ثمرها، سمِّي طلعاً لطلوعه كلَّ سنة، والشياطين: حيات خفيفات الأجسام، قبيحات المنظر، قال الشاعر وذكر ناقة:

تُـلاَعـب مَـثْـنـى حَـضْـرَمـيٍّ كـأَنَّـه تعمُّج شيطان بذي خِرْوَع قَفْرِ[166]

يعني زماماً، شبَّه تلوِّيه بتلوِّي الحيَّة.. إلى أن يقول: «وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّه أراد الشياطين بأعيانها.

شبه ثمر هذه الشجرة في قبحه برؤوسها، وهي وإن لم تُرَ، فإنّها موصوفة بالقبح معروفة به»[167].

فابن قتيبة يوضح التشبيه في الآية توضيح العالم الخبير بلغة العرب وآدابهم، مبيناً كل الوجوه والاحتمالات الأسلوبية الممكنة، رادّاً على الطاعنين في القرآن بأن المشبه به مجهول، وإنّما يكون التشبيه بالعلوم، مبيِّناً لهم أنَّ المشبه به إمَّا أن يكن الحيّات، وقد استشهد بقول الشاعر العربي المتقدِّم، وإمَّا أن يكون رؤوس الشياطين بالفعل، فهي وإن لم تُرَ فإنَّها معلومة بالقبح، موصوفة به عند العرب. فالمراد التنفير والتقبيح، فقد بيَّن التشبيه ووجه الشبه في هذه الآية.

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا

---

(163) سورة مريم، الآية: 61.

(164) تأويل مشكل القرآن: 287 ـ 298.

(165) سورة الصافات، الآيتان: 64 و65.

(166) المثنى: زمام الناقة، والحضرمي: منسوب إلى حضرموت، والتعمُّج: التلوي. والشيطان: الحية.

(167) تأويل مشكل القرآن: 390.

(168) سورة البقرة، الآية: 171.

دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[168] وكان بعض أصحاب اللغة يذهب إلى مثل هذا في القلب، ويقول: «وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم»[169].

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[170]، أي كسراب يحسبه العطشان من البعد ماءً يرويه، كذلك الكافر يحسب ما قدَّم من عمله نافِعة حتى إذا جاءه، أي مات، لم يجد عمله شيئاً، لأن الله عزَّ وجلَّ قد أبطله بالكفر ومحقه[171].

وشارك ابن قتيبة في دخول معترك النزاع الفكري الذي كان يجري في عصره، وحمل لواء أهل السنة والحديث، وردَّ على خصومه الذين اتهموه بأنه كان كرَّامياً يميل إلى التشخيص والتشبيه، فألَّف كتاب «الاختلاف في اللفظ والرَّدِّ على الجهميَّة والمشبِّهة»، فيَدْفَعَ عن نفسه ما رموه به، وتسلَّح باللغة، ليردَّ عليهم أقوالهم، ويفنِّد مزاعمهم، ويبطل حججهم، ولم يأخذ بعلم الكلام لأنه لغوي، وليس من شأنه الدخول في مناقشات عقيمة رأى من كان قبله قد هلك بها، وقال: «ولم أعْدُ في أكثر الرَّد عليهم طريق اللغة، فأمّا الكلام فليس من شأننا، ولا أرى أكثر من هلك إلا به»[172].

ويرد على خصومه تأويلهم بعض آيات القرآن الكريم التي رأى أنّها مشكلة تحتاج إلى توضيح وبيان، واعتمد في ذلك على قدرته اللغوية ومخزونه اللغوي ليصحح ما اعتقد أن خصومه قد أخطؤوا فهمه، من ذلك قوله في الرَّدِّ على الجهميَّة والمشبِّهة: «ولما اطَّرد لهم القول على ما أصَّلوا، ورأوه حسن الظاهر قريباً من النفوس، يروق السامعين، ويستميل قلوب الغافلين، نظروا في كتاب الله، فوجدوه ينقض ما قاسوا، ويبطل ما أسسوا، فطلبوا له التأويلات

(169) تأويل مشكل القرآن: 199.

(170) سورة النور، الآية: 39.

(171) تأويل مشكل القرآن: 329.

(172) الاختلاف في اللفظ: 99.

المستكرهة، والمخارج البعيدة، وجعلوه عويصاً وألغازاً، وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما لا يصح في النظر، ولا في اللغة»[173].

ومن الآيات التي عارض ابن قتيبة تأويل القدرية أو المعتزلة قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[174] فهم يرون أن الله ينسبهم إلى الضلال. وفي قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[175]، ينسبهم إلى الهداية. ويقول ابن قتيبة في رده: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ تعني الإضلال فعلاً، وليس (ينسبهم إلى الضلال) وإلاّ صحَّ أن يقال مكانها يضلِّلهم، كما يُقال يخوِّنهم ويفسِّقهم ويظلمهم، أي ينسبهم إلى الظلم. وقال المعتزلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[176]، أي ما كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله. وردّ عليهم ابن قتيبة بقوله: «وهذا من تأويلهم لا يصح في نظر أو لغة»[177].

ويأخذ ابن قتيبة بأصالة الدلالة للفظ العربي في التأويل القرآني، وتأييد موقف أصحاب الحديث، ويسلك منهج المناظرة، ويؤيِّد ما يقدِّمه من ردود بالحجج والأدلة المأخوذة من القرآن، والسنة، والأقوال المأثورة، والشعر العربي الذي يحتج به، ويبرز بجلاء الدلالات الأصيلة لألفاظ وردت في نصوص قرآنية ونبويَّة، ويقول: «أما النظر فإنه لم يقل أحد من الناس أن شيئاً يحدث في الأرض إلاّ بعلم الله... وإنما اختلفوا في الإذن الذي هو المشيئة والإطلاق فقال المثبتون[178]: «لم يشأ أن يؤمن جميع النَّاس، ولو شاء لآمنوا، فليس لنفس أن تؤمن حتى يشاء الله ذلك ومُطْلَقُه»، وقال أهل القدر[179]: «قد

---

(173) السابق: 100.

(174) سور النحل، الآية: 93.

(175) سورة النحل، الآية: 93.

(176) سورة يونس، الآية: 100.

(177) الاختلاف في اللفظ: 101.

(178) المثبتون: ومفردها المثبت، وهو الذي يثبت الصفات الإلٰهية، ويسمّون أيضاً الصفاتية.

(179) أهل القدر: المعتزلة لكونهم يقولون بالتخلية والإهمال، وأن الإنسان تعود إليه أموره، ويكون حراً في القيام بأفعاله ومسؤولاً عنها.

شاء الله هذا لكل نفس وأطلقه، فلها أن تؤمن إن شاءت». وفي صدر هذا الكلام دليل على ما قاله أهل الإثبات، لأنَّ النبي ﷺ كان يحب إيمان قريش، فأنزل الله عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[180]، ثم قال على إثر ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[181]، يريد بمشيئته وإطلاقه، فأوَّل الكلام دليلٌ على آخره. والناس مجمعون لا يختلفون على أنَّ القائل إذا قال: «لو شئت لآتيتكَ أنه لم يشأ إتيانه»[182].

ويحتكم ابن قتيبة في تأويل اللفظ القرآن إلى تداوله الحي الثابت في أكثر من مجال قرآني وتراثي عربي، ورفض ما يتعدَّى ذلك إلى مجرَّد التصور أو التقدير النظري، ودقة التحليل اللغوي، ويعارض تأويل المعتزلة والجهميَّة وسواهم كلمة (إِذْن) في الآية المتقدمة بعلم أو إعلام، ويرجع في هذه المعارضة إلى التداول الحي لهذه الكلمة، رافضاً تحميلها غير دلالتها العربيَّة المتبَّعة، ويقول: «وأمَّا اللغة فإنه لا يجوز فيها أن يجعل الإذْن العلم لأنَّ الإذْن، ألا ترى أنَّ قائلاً لو قال لك قد أذنتك بخروج الأمير إيذاناً أي أعلمتك خروجه إعلاماً، إنَّ جوابك كأن يقولَ له قد آذنت لقومك إذْناً أي سمعته فعلمته. والإيذان المأخوذ من الأذن إنما هو إيقاع الخبر في الأذن، والأذن استماعه وعلمه، قال عَدِيُّ بن زيد[183]:

أيـهـا الـقـلـب تـعـلَّـلْ بـدَدنْ إنَّ هَـمـي فـي سـمـاع وأُذُنْ[184]

ومنه أذان الصلاة، إنَّما هو إسماع النَّاس ذكرها حتى يعلموا. وقول الله

---

(180) سورة يونس، الآية: 99.

(181) سورة يونس، الآية: 100.

(182) الاختلاف في اللفظ: 101.

(183) هو عدي بن زيد العبادي، شاعر جاهلي غلب على شعره طابع الحكمة والزهد. قيل إن النعمان قتله (604م).

(184) بددن: بلهو. وقد جاء في الحديث: «ما أنا من دَدَن ولا دَدَن مني).

عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[185]، أي إسماع وإعلام، والإذن في الشيء أن تشاءه وتطلقه، تقول: (أذنت له في الخروج إذناً) هذا ما ليس به خفاء على من نظر إلي في جميع الأزمنة، بل مؤمني زمن موسى ومسلمي زمن نبينا، عليهما السَّلام، وكذلك قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[186]، لم يفضِّلهم على محمد ﷺ ولا أمتهم على أمته، وإنما أراد عالمي أزمنتهم[187].

فابن قتيبة لم يفسر معنى اللفظ تفسيراً سطحيًّا، وإنما فسَّره من خلال سياق الآية وحدَّد دلالته الخاصَّة، مدركاً أن الألفاظ تكتسب دلالاتها من سياق الكلام.

وأدرك بحسِّه اللغوي السليم أثر الحرف في تحديد معنى الآية، وتنبَّه لمحاولات الجهميَّة وأتباعها في إبدال بعض حروف القرآن بغيرها لإقامة مذهبهم، وردَّ عليهم، وأبطل قراءاتهم؛ لأنه رأى فيها تحريف المعنى عن جهته، ونَقْلَه عن سننه، وقال: «وحاول بعضهم إبدال حروفه بغيرها، فقرأ: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾[188]، بالسين غير المعجمة والنصب، وقرأ جميع ما في القرآن من المخلصين، بكسر اللام، وإن كان قرأ بذلك بعض القراء، يريد أن يجعل الإخلاص لهم، وألاَّ يكون لله فيه صنع، فكيف يصنع بقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[189]. وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ[190] خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[191] بكسر إنما الأولى وفتح الثانية، يريد لا يحسبَنَّ الذين كفروا أنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً، إنّما نملي لهم خير

---

(185) سورة التوبة، الآية: 3.

(186) سورة الأعراف، الآية: 140.

(187) الاختلاف في اللفظ: 105.

(188) سورة الأعراف، الآية: 156.

(189) سورة ص، الآية: 46.. ذكرى الدار: ذِكْر الدار: الآخرة أي ذِكْرُها والعمل بها.

(190) أنّما نُملي لهم: أي إملاؤنا (لهم) بتطويل الأعمار.

(191) سورة آل عمران، الآية: 178.

لأنفسهم، فحرّف المعنى عن جهته، ونقله عن سننه، وجعل الإملاء للكفار من الله إنما هو لخير يريده بهم.

وقد حمل بعضهم نفسه على أن قرأ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾، وألحقها في بعض المصاحف طمعاً في أن تبقى على الدهر ويجعلها الناس وجهاً[192]، وكيف له ما قدَّر؟ والله يقول إلى جنبها: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[193].

وينتصر ابن قتيبة لدعوة إثبات الصفات الإلٰهية متبعاً في ذلك السلف، وهو يرفض نفي هذه الصفات، كالقول بأن الله حليم ولكن ليس بحلم، وعليم وليس بعلم، وسوى ذلك.

ويستند في تأييد دعوته إلى اللغة، فالناس مجمعون على أن يقولوا: (أسألك العفو) و(يعفو بحلم، ويعاقب بقدرة)، ويرى بحسّه اللغوي ما دام الله تعالى يحلم ويعفو حقيقة اللغة وفهمها»[194]. ويعارض ما ذهب إليه الجهميَّة والمعتزلة في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[195] فجعلوا الإرادة في الهداية والإضلال للعبد لا لله، وركبوا في ذلك غلطاً، والإرادة لا يجوز أن تكون للعبد لا لله، وركبوا في ذلك غلطاً، والإرادة لا يجوز أن تكون للعبد وقد وليها اسم الله، وهو مرفوع بإجماع القُرَّاء، ولو كان أحدٌ منهم نصب الله لكان أقرب إلى المعنى الذي أراده، وإن كان لا يجوز أيضاً لأنه يضم في الكلام (من) فيكون معناه من يريدُ مِنَ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ثم يحذف (مِنْ) وينصب الله لمَّا نزع حرف الصلة، كما يقال: «من يسرق القوم مالهم يقطع»، وهذا ليس يجوز إلا مع حروف معدودة محكية عند العرب لا تحمل عليها غيرها وتقيسها عليها»[196].

---

(192) أي وجه من وجوه القراءة القرآنية عملاً بالحديث: «إنَّما أنزل القرآن على سبعة أحرف».

(193) سورة آل عمران، الآية: 178، ولهم عذاب مهين: ذو إهانة في الآخرة.

(194) الاختلاف في اللفظ: 102.

(195) سورة الأنعام، الآية: 125.

(196) الاختلاف في اللفظ: 103.

فقد انتقد ابن قتيبة تأويل المعتزلة الكلامي لهذه الآية في أصول دينيَّة ولغويَّة، ورأى أنهم يحرِّفون الحقائق والصفات، وينسبون إلى المخلوق ما هو خاص بالخالق انسجاماً مع ما يؤمنون به في مذهبهم الكلامي، دون مراعاة لخصائص الكلام العربي، وخاصَّة في قواعدها النحوية. وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[197]. دفعنا وألقينا.. ويرد عليهم ابن قتيبة بقوله: «وهذا جهل باللغة وتصحيف، وأحسبهم سمعوا قول العرب: «أذرتْه الدَّابة عن ظهرها» أي ألقته، فتوهموا أنَّ (ذرأنا) من ذلك، ولو أريد ذلك المعنى لكان (لقد أذرينا لجهنَّم). وليس يجوز أن تكون (ذرأنا) في هذا الموضع إلاَّ خلقنا، كما قال: ﴿ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[198]، وقال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[199]، أي يخلقكم في الرَّحم»[200].

ويظهر ابن قتيبة دراية عميقة بالنصِّ القرآني حين يفسِّر الآيات المشكلة، مدركاً تطور دلالة اللفظ الذي قد يرد بشكل عام، ولكنه يعني ضمناً معنًى خاصاً، كقوله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[201]، ثم قوله على لسان محمد ﷺ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[202]، لم يريدا كُلَّ المؤمنين، وكُلَّ المسلمين لا مجازاً فقد وجب في المصدر ما وجب في الصدر، ولأنَّا نقول: غفر الله مغفرة وعفا عفواً، وحلم حلماً، ومن المحال أن يكون واحد منهما حقيقة والآخر مجازاً، ويبسط ابن قتيبة رأيه بالتحليل والمناظرة، ويقول: «وتعمق آخرون في النظر وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد بنفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات مثل الحلم والقدرة وأشباه ذلك، فقالوا: (نقول هو الحليم ولا نقول بحلم، وهو القادر ولا نقول بقدرة، وهو العالم ولا نقول

---

(197) سورة الأعراف، الآية: 179.

(198) سورة المؤمنون، الآية: 79.

(199) سورة الشورى، الآية: 11.

(200) الاختلاف في اللفظ: 104.

(201) سورة الأعراف، الآية: 143.

(202) سورة الأنعام، الآية: 163.

بعلم، كأنهم لم يسمعوا إجماع الناس على أن يقولوا: (أسألك العفو) وأن يقولوا (يعفو بحلم ويعاقب بقدرة) والقدير هو ذو القدرة، والعليم هو ذو العلم.. فإن زعموا أن هذا مجاز قيل لهم: ما تقولون في قول القائل: (غفر الله لك، وعفا عنك) أمجاز هو أم حقيقة، فإن قالوا هو مجاز فالله لا يغفر لأحد ولا يعفو عن أحد.. ولن يركبوا هذه[203]، وإن قالوا: حقيقة فقد وجب في المصدر ما وجب في الصدر، لأنا نقول: غفر الله مغفرة، وعفا عفواً وحلم حلماً، فمن المحال أن يكون واحد حقيقة والآخر مجازاً»[204].

فابن قتيبة انتصر لرجال الحديث في إثبات صفات الله كالسمع والبصر والحلم، وغيرها، أي أنَّ الله سميع بسمع، وعليم بعلم، وحليم بحلم، وسمعه صفة له، وما هو عين ذاته، وكذلك هو علمه وحلمه وسواه، وعارض الجهمية هذا التأكيد الصفاتي الإلٰهي، وأصروا على نفي الصفات عن الذات الإلٰهية خوفاً من الوقوع في التشبيه والتجسيم، ويقولون إن الله عليم وعلمه هو عين ذاته، وكذلك هو بصره، وسمعه، وغيره...

ويخوض ابن قتيبة معترك الرأي بمسألة خلق القرآن، وزاده في ذلك اللغة، فينبري إلى مقارعة خصومه من المعتزلة بإبطال حججهم التي اعتمدوها من ألفاظ القرآن، بأنه مخلوق، فيعيد تأويلها مستخدماً براعته اللغوية، ومقدرته على تقليب الكلمة على وجوه مختلفة تلائم معتقده، وتستقيم مع مذهبه الذي أقامه، فقد تزعَّمَ أهل السنة الذين يقولون بقدم كلام الله النفسي، وحدوث الأصوات والنقوش والأوراق والقلوب التي فيها الكلام اللفظي، وقال في ردِّه على المعتزلة: «وقالوا في كلام الله إنَّه مخلوق لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[205]، والجعل يعني الخلق، ولأنه قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[206]، فكل مُحْدَث مخلوق، وإنَّ معنى كلَّم الله أوجد كلاماً

(203) ولن يركبوا هذه: أي لن يقدموا على ارتكابها.
(204) الاختلاف في اللفظ: 109.
(205) سورة الزخرف، الآية: 3.
(206) سورة الأنبياء، الآية: 2.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[207]، أوجد كلاماً سمعه. فخرجوا بهذا التأويل من اللغة ومن المعقول؛ لأن معنى تكلَّم الله أتى بالكلام من عنده، وترحَّم الله أتى بالرحمة من عنده، كما يقال: تخشَّع فلان أتى بالخشوع من نفسه، وتشجَّع أتى بالشجاعة من نفسه، وتبتَّل[208] أتى بالتبتُّل من نفسه، وتحلَّم أتى بالحلم من نفسه، ولو كان المراد أوجد كلاماً لم يجز أن يقال تكلَّم، وكان الواجب أن يقال: (أكلم)، كما يقال: (أقبح الرجل أتى بالقباحة) و(أطاب أتى بالطيب)، و(أخَسَّ أتى بالخساسة). وأن يقال: (أكلم الله موسى كلاماً) كما يقال: (أقبر الله الميت) أي جعل له قبراً، أو (أرعى الله الماشية) جعلها ترعى وأشباه هذا كثيرة لا تخفى على أهل اللغة..»[209]. «وأما استشهادهم (بالجعل) على خلق القرآن في قول الله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[210]، فإن الجعل يكون بمعنيين أحدهما خَلْقٌ، والآخر غير خَلْق. فأمَّا الموضع الذي يكون فيه خلقاً فإذا رأيته متعدياً إلى مفعول واحد لا يجاوزه، كقول الله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[211]، فهذا بمعنى خلق، وكذلك: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[212]، أي خلق منها، وأمّا الموضع الذي يكون فيه غير الخلق، فإذا رأيته متعدياً إلى مفعولين، كقوله: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلٗاۚ﴾[213]، أي صيّرتم، وكقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾[214] وكقول القائل: «جعل فلان أم امرأته في يدها»[215]، فإن هم وجدوا في القرآن كله جعل، متعدية إلى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق فنحن نتابعهم، وكذلك المُحْدَث ليس هو في

---

(207) سورة النساء، الآية: 164.

(208) تبتَّل عن الزواج تركه أو زهد فيه.

(209) الاختلاف في اللفظ: 110.

(210) سورة الزخرف، الآية: 3.

(211) سورة الأنعام، الآية: 1.

(212) سورة النساء، الآية: 1.

(213) سورة النحل، الآية: 91.

(214) سورة البقرة، الآية: 66.

(215) جعل فلان أمر امرأته في يدها: أي أوكل إليها أمر طلاقها منه وليس له.

موضع معنى مخلوق، فإن أنكروا فليقولوا في قول الله: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[216] إنَّه يخلق، وكذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[217]، أي يحدث لهم القرآن ذكراً، والمعنى يحدث عندهم ما لم يكن. وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك»[218].

فابن قتيبة يفسر اللفظ جارياً على سنن العرب، ولا يزيل اللفظ عن ظاهره ولا يتحمَّل في تأويله تأويلاً مجازياً يبعده عن معناه الظاهر، مع شدة حرصه على عدم الوقوع في حبائل التجسيم والتشبيه، فهو يقر بصفات الله التي انتهى إليها الله عزَّ وجلَّ في صفته، أو إلى حيث انتهى رسوله ﷺ ولا يزيل اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه.

وقد أقرَّ بوقوع الاشتراك في اللغة، فاللفظ الواحد عنده، يحتمل أكثر من معنى، ويحدد معناه سياق الآية، أو الجملة، فهو ينص على معناه الظاهر، دون سؤال عن الكيف، ولذلك رفض تأويل المعتزلة كلمتي اليد والروح في بعض الآيات القرآنية، فقد أوَّلوا كلمة (يد) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[219] بالنعمة، وكلمة (الروح) في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[220] بالأمر، أي أمرت أن يكون. ويردُّ على هذا التأويل فيبين ما لليد من المعاني، مثل النقمة والقوة، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[221]، يريد أولي القوة في دين الله، ومعنى اليد الطاقة، ويرفض تأويل (اليد) بالنعمة في الآية المتقدمة؛ لأن النعمة لا تُغَلّ، وكما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[222]،

---

(216) سورة الطلاق، الآية: 1.

(217) سورة طه، الآية: 113.

(218) الاختلاف في اللفظ: 110 ـ 111.

(219) سورة المائدة، الآية: 64.

(220) سورة الحجر، الآية: 29.

(221) سورة ص، الآية: 45.

(222) سورة المائدة، الآية: 64.

ولا يجوز أن يريد (النعمتان مبسوطتان)، ويؤكد أن اليد في الآية الأولى والمعنية هي اليد، وأن (اليدين) في الآية المتقدمة الثانية هما (اليدان) وهو يستند في تأكيده إلى قول ابن عباس: (اليدان اليدان) ولكن دون أي كيف، ويدعم رأيه بأمثلة موضحة، كقول الرسول ﷺ: «**كلتا يديه يمين**»، فلا يجوز لأحد أن يجعل اليدين نعمة أو نعمتين، و(يدا) الحديث المذكور تعنيان التمام والكمال، لما في اليمين عند العرب من التمام والكمال، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[223]، فاليد هنا ليست النعمة، ولكن هي كما يقول الله ويصف نفسه، وهي تعنيه مع نفي الكيف والتشبيه، وقول رسول الله ﷺ: «**يمين الله سحّاء لا يغيضها شيء الليل والنهار**» أي هي تصب العطاء، ولا ينقصها ذلك أبداً[224].

ويعارض ابن قتيبة تأويل المعتزلة للروح في الآية المتقدمة الذكر بالأمر، ويبين ما لكلمة الروح من دلالات معنوية مختلفة، فهي تعني الكلام؛ والملك العظيم، وروح الأجسام، والرحمة، والنفخ، وهي ما دامت ملازمة للنفخ فلن تفيد إلاّ معناها الواحد والثابت في التراث، كقول الشاعر ذي الرُّمَّة، وذكر ناراً قدحها:

وقلت له ارفعْها إليك وأحْيها بروحك واقتته لها قيتة قدْرا[225]

يقول أحي النار بنفخك، فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح، ولا تقول كيف ذلك، لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته، أو حيث انتهى رسول الله ﷺ، ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب، وتضعه عليه ونمسك عمَّا سوى ذلك[226]. ويرفض تأويل المعتزلة الآية الكريمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿22﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[227]، فيرون أن (ناظرة) هنا تعني منتظرة الثواب، ويستندون في ذلك إلى أكثر من دليل كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ

---

(223) سورة ص، الآية: 75.

(224) الاختلاف في اللفظ: 113 ـ 114.

(225) البيت في ديوانه: 3/ 1429، واقتت: اقتات النار: قدَّم لها حطباً، ونفخ فيها نفخاً رفيقاً.

(226) الاختلاف في اللفظ: 115.

(227) سورة القيامة، الآيتان: 22 ـ 23.

وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[228]، وابن قتيبة يرى في (ناظرة إلى ربها) المذكورة إثباتاً لحقيقة الرؤية الألهية، وينفي نفي المعتزلة لها لكون ناظرة تعني عندهم منتظرة، وذلك لا يصح، وإلاّ وجب التغيير في صيغة الآية فتصبح (. . . .لربِّها ناظرة)، ويقول (وقالوا في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝22 إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي منتظرة، والعرب تقول نظرتك وانتظرتك بمعنى واحد، وفي قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[229]. أي انتظرونا. وما ننكر أن نظرت قد تكون بمعنى انتظرت، وأنّ الناظر يقال أنا لك ناظر أي أنا لك منتظر، ولا يقال أنا إليك ناظر أي إليك منتظر إلاّ أن يريد نظر العين، والله يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝22 إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ولم يقل لربها ناظرة لتحتمل ما تأولوا»[230]. وانطلاقاً من موقع ابن قتيبة السلفي فهو يعارض تأويل المعتزلة للمفردات القرآنية: العرش، الكرسي، عَجَل، خليل، فغوى. مؤمناً بالدلالات الأصيلة لتلك المفردات في مقابل عقلانية المعتزلة، ويدعم آراءه بآيات القرآن الكريم، وبالشعر العربي الذي يحتج به، وهو يغلِّب هذه المعايير والمبادئ في تأويل القرآن على ما عند المعتزلة من مجرد الرأي والنظر، ويرفض تأويل الجهمية والمعتزلة كلمة (استوى) في الآية الكريمة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[231]. بـ(استولى)، ويرى في هذا التأويل مجرد القول بالرأي، والصواب عنده تفسيرها. (استقر) ويدعم رأيه بورود الكلمة المعنية في أكثر من آية قرآنية، وفي مأثور التخاطب العربي كأن يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزاً: استو، وهو ما يعني بوجه آخر إجماع الناس، وقال في ذلك: «وقالوا في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، إنه استولى. وليس يُعْرَف في اللغة، استويت على الدار أي استوليت، وإنما استوى في هذا المكان استقرَّ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾[232]، أي

---

(228) سورة الأنعام، الآية: 103.

(229) سورة الحديد، الآية: 13.

(230) الاختلاف في اللفظ: 115 ـ 116.

(231) سورة طه، الآية: 5.

(232) سورة المؤمنون، الآية: 28.

استقررت. وقد يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزاً (استو يريد استقر)، وأمّا قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[233]، فإنه أراد عمد لها وقصد، فكل من كان في شيء ثم تركه لفراغ أو غير فراغ، وعمد لغيره، فقد استوى إليه، فهذا مذهب القوم في تأويل الكتاب بآرائهم[234]، وعلى ما أصّلوا من قولهم[235].

لقد صدر ابن قتيبة عن آراء ناضجة في تأويل مشكل الآيات، وأثبت نضجاً لغوياً، وعمقاً في الثقافة، واجتهاداً دونما مفارقة في ذلك للكتاب والسنة، وهديهما، أو تعمُّد للقياس. ويدعم آراءه بأدلة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وبمأثورات التراث العربي، منافحاً عن دينه ولغته، مفنداً آراء خصومه، يبطل حججهم بتفقهه في أمور العقيدة، وامتلاكه ناصية اللغة، والغور على خفاياها وأسرارها، وعلمه بدلالات ألفاظها الأصيلة واتساقها مع سنن العرب في التعبير وطرق القول ومآخذه، ولا شك أنه تأسّى بدراساته القرآنية بأئمة التفسير كابن عبَّاس ومجاهد وغيرهما، وأفاد من آرائهم، ونقل كثيراً في كتبه عنهم، مصرِّحاً بأسمائهم، ونهج نهجهم في تفسير غريب القرآن وتأويل مشكله، بالرجوع إلى شعر العرب وكلامهم، ولعلَّ هذا هو الاتجاه الأسلم لتجنب تحميل النص القرآني ما ليس له، كما يفعل أصحاب البدع والأهواء، وسلك منهجاً تطبيقياً جديداً في تأويل آيات القرآن الكريم، أساسه رسم الصورة الكاملة، لإيضاح الفكرة، وبيان الغرض من النص القرآني؛ ولذلك لم يعن بالتعريفات والتقسيمات، بل انصرفت عنايته إلى الناحية التطبيقية فأكثر من الشواهد والأمثلة، مبيناً المراد منها، لتتحقق الغاية المرجوَّة، وهي فهم الفكرة وتقريرها وتأكيدها في ذهن القارئ، وخالف اللغويين النقاد الذين كانوا يحتجون بكلام العرب على القرآن، فهو يورد النصَّ القرآني، ثم يتبعه بآيات القرآن الكريم وبكلام العرب شعراً ونثراً، وهو بذلك يحتج بالقرآن على الشعر وكلام العرب،

---

(233) سورة البقرة، الآية: 29.

(234) بآرائهم: أي دون الرجوع في التأويل إلى نصٍّ قرآني أو حديث نبوي.

(235) الاختلاف في اللفظ: 120.

ومحاولاته من هذا القبيل من مظاهر شخصيته المستقلة.

ولا شك أن أئمة اللغة نهضوا بأداء مهمتهم مشمِّرين عن سواعد الجد بحثاً وتنقيباً وتمحيصاً وتأليفاً ومناظرة، وانصرفت عنايتهم إلى موضوع تأويل مشكل القرآن، ونالت موضوعات العقيدة جل اهتمامهم، وبذلوا جهوداً كبيرة لتنقية العقيدة والرد على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو، وتصدوا لهم، وتسلحوا باللغة ليردوا عليهم أقوالهم، ويفندوا مزاعمهم، ويبطلوا حججهم، معتمدين على قدراتهم اللغوية ومخزونهم اللغوي ليصححوا ما اعتقدوا أن خصومهم قد أخطؤوا فهمه، وقد أخذوا بأصالة الدلالة للفظ العربي في التأويل القرآني وتأييد مواقف أصحاب الحديث، وسلكوا منهج المناظرة، وتأييد ما يقدمونه من ردود بالحجج والأدلة المأخوذة من القرآن الكريم والسنة المطهّرة، والأقوال المأثورة، والشعر العربي الذي يحتج به، مبرزين بجلاء الدلالات الأصيلة لألفاظ وردت في نصوص قرآنية ونبوية، وهم يصدرون عن خبراتهم بأسرار العربية، وفقههم بأساليبها، واستعمالاتها، ووقوفهم على خصائص التعبير فيها.

نتائج الدراسة:

إن النتائج التي يمكن أن نستنتجها من هذه الدراسة تتلخص في النقاط التالية:

1 ـ قوَّم البحث جهود أئمة اللغة المتقدّمين لتنقية العقيدة، وأبان عن المناهج التي سلكوها لتأويل مشكل الآيات التي اعتقدوا بأنها تحتاج إلى تفسير وتوضيح، وكانت جهودهم في هذا المضمار تعدُّ مؤشراً على التأريخ لتطور البحث اللغوي عند العرب.

2 ـ بين البحث أن السلف الصالح كانوا يراعون مبدأ الأمانة العلمية وَيُعْلُون من شأن النقل، فما لم ينقل إليهم سليماً مُسْنَداً لا يجتهدون في تأويله، يحفزهم على ذلك إجلالهم لمضمون هذا الكتاب العظيم، وتورعهم من

الاجتهاد الذي قد يعتوره شيء من الظن والتخمين عند تأويل بعض الآيات.

3 ـ أشار البحث إلى أن حوافز الدراسة اللغوية عند العرب كان مبعثها الحرص على فهم القرآن الكريم، وبوجه خاص فهم غريبه وتأويل مشكله، استكمالاً لفهم العقيدة الإسلامية وتنقيتها، وخدمة لها.

4 ـ رصد البحث جهود أئمة اللغة في استخراج أنواع المجاز في القرآن الكريم وتبويبها؛ لأن المجاز يعد القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، ويعد عملهم في هذا المجال الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة، وبنوا عليه من بعد.

5 ـ أكد البحث أن اللغويين المتقدِّمين اعتمدوا على اللغة وشواهدها في تأويل مشكل آيات القرآن الكريم، فقد استخدموا عقولهم، وآراءهم الخاصة، وذوقهم اللغوي في تصحيح ما اعتقدوا أن خصومهم أخطؤوا فهمه، وقد تسلحوا باللغة ليردوا عليهم أقوالهم، ويفندوا مزاعمهم، ويبطلوا حججهم.

6 ـ رسخ البحث الاتجاه إلى قدرات أئمة اللغة وعلمهم بالقرآن وعلومه وقراءاته وبالعلوم الدينية من فقه وتفسير وتأويل، وبلغة العرب وعلومها، وبالشعر العربي الجاهلي والإسلامي، وتوظيف ثقافتهم الموسوعية في خدمة النص القرآني وتأويل مشكله، بالرجوع إلى شعر العرب وكلامهم، ويعد هذا هو الاتجاه الأسلم لتجنب تحميل هذا النص ما ليس منه، كما يفعل أصحاب البدع والأهواء.

7 ـ حدّد البحث مسالك اللغويين المتقدمين في توضيح مشكلات الآيات المتشابهات اللغوية والنحوية والصرفية، وهم يهدفون من هذا التبيين إلى هدم كل ما أشاعه المغرضون حول الكتاب الكريم من مزاعم التناقض والغموض والتفاوت في البيان.

8 ـ انتهى البحث إلى أن أئمة اللغة اتخذوا من أسلوب المناقشة والمناظرة

والردِّ اللغوي سبيلهم إلى الإقناع، مؤيدين آراءهم بالحجج والأدلة، ليزيلوا عن النص القرآني كل لبس أو غموض، مستندين إلى معرفتهم العميقة بأسرار اللغة، ووقوفهم الدقيق على ظواهرها اللغوية، ودرايتهم بعلومها.

المصادر والمراجع

1 ـ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، راجعه: سعيد المندوة، ط، دار الفكر، بيروت 1996م.

2 ـ **أثر القرآن في تطور النقد العربي**، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر 1961م.

3 ـ **الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة**، ابن قتيبة، حققه كاظم حطيط، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1990م.

4 ـ **أساس البلاغة**، الزمخشري، حققه عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت 1979م.

5 ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت 1973م.

6 ـ **إعراب القرآن**، أبو جعفر النحاس، حققه زهير غازي أحمد، مطبعة العاني، بغداد 1980م.

7 ـ **الألفاظ اللغوية**، عبد الحميد حسن، معهد البحوث والدراسات لجامعة الدول العربية، القاهرة 1971م.

8 ـ **البحث اللغوي عند العرب**، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة 1978م.

9 ـ **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي، القاهرة 1958م.

10 ـ **تاريخ التراث العربي**، د. محمد فؤاد سزكين، ترجمة عرفه مصطفى، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض 1988م.

11 ـ **تأويل مشكل القرآن**، ابن قتيبة، حققه السيد أحمد صقر، ط2، القاهرة 1973م.

12 ـ **التصور اللغوي عند الأصوليين**، د. أحمد عبد الغفار، دار عكاظ للنشر، الرياض 1982م.

13 ـ **تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العربية العام**، د. وليد محمد مراد، دار الرشيد، دمشق 1984م.

14 ـ **تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية**، د. عمر ملا حويش، بغداد 1972م،

15 ـ **التطور اللغوي التاريخي**، د. إبراهيم السامرائي، دار الأندلس، بيروت 1981م.

16 ـ **التعريفات**، الجرجاني، حققه عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة 1991م.

17 ـ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، دار الكتب المصرية، القاهرة 1967م.

18 ـ **الحجة في القراءات السبع**، ابن خالويه، حققه عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت 1971م.

19 ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، البغدادي، حققه عبد السلام هارون، دار الثقافة، بيروت.

20 ـ **دائرة المعارف الإسلامية**، النسخة العربية، إعداد إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الشعب، القاهرة 1969م.

21 ـ **دارسات في اللغة**، د. إبراهيم السامرائي، مطبعة العاني، بغداد 1961م.

22 ـ **دلائل الإعجاز**، الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، القاهرة 1984م.

23 ـ **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، أحمد بن فارس، حققه السيد أحمد صقر، القاهرة 1977م.

24 ـ **طبقات المفسرين**، الداوودي، حققه علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة 1972م.

25 ـ **طبقات النحويين واللغويين**، أبو بكر الزبيدي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، القاهرة 1954م.

26 ـ **ظاهرة التأويل وصلتها باللغة**، د. أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

27 ـ **العربية (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)**، يوهان فك، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951م.

28 ـ **عقائد السلف**، ابن قتيبة وأحمد بن حنبل والبخاري والدارمي، حققه د. علي سامي النشار، الاسكندرية 1971م.

29 ـ **علم اللغة**، محمود السعران، دار المعارف، القاهرة 1962م.

30 ـ **علم اللغة العربية**، د. محمود فهمي حجازي، الكويت 1973م.

31 ـ **علم اللغة العام**، د. محمد كمال بشر، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

32 ـ **علم المفردات في إرثنا اللغوي**، نشأة محمد رضا ظبيان، دار العلوم، الرياض 1981م.

33 ـ **الفهرست**، ابن النديم، حققه رضا نجدو، طهران 1971م.

34 ـ **فوات الوفيات**، ابن شاكر الكتبي، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1951م.

35 ـ **في التحليل اللغوي**، منهج وضعي وتحليلي، خليل أحمد عمايرة، مكتبة المنار، الأردن 1987م.

36 ـ **قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة**، د. عبد العزيز المقالح، دار العودة بيروت 1982م.

37 ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، الزمخشري، البابي الحلبي، القاهرة 1972م.

38 ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، أنقرا تركيا 1946م.

39 ـ **اللغة**، فندريس، تعريب الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1950م.

40 ـ **اللغة بين المعيارية والوصفية**، د. تمام حسان، الدار البيضاء 1980م.

41 ـ **مباحث في علوم القرآن**، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت 1977م.

42 ـ **مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنى، حققه د. فؤاد سزكين، القاهرة 1954م.

43 ـ **مذاهب التفسير الإسلامي**: كولدتسهير، ترجمة د. عبد الحليم النجار. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1955م.

44 ـ **معاني القرآن**، الفرّاء، حققه محمد علي النجار وآخرون، الدار المصرية، القاهرة 1955م.

45 ـ **النشر في القراءات العشر**، ابن الجزري، حققه علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة.

46 ـ **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، حققه د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1970م.